المحاضرة الثانية

(اصلاحات دقلديانوس ونتائجها)

ولد دقلديانوس في اقليم دلماشيا من أب فلاح وفتحت له الخدمة في الجبش الروماني مجال التقدم. واخيرا ، وعلى اكتاف الجيش ، ارتقى الى ذلك المنصب الرفيع منصب الامبراطور . واعتلاء دقلديانوس العرش يمثل بحد ذاته امرين مهمين كانا يميزان وضع الامبراطورية خلال تلك الفترة من تاريخها أولهما تركيب الجيش الروماني من عناصر غير رومانية وثانيهما الدور الذي كان يلعبه الجيش في سياسة الامبراطورية. وعلى اية حال فان دقلديانوس نفسه يعتبر خير ممثل للعصر الذي عاش فيه.

لم يكن مثقفا ثقافة عالية . ولم يكن ملما بتطور الانظمة الرومانية ، ولا متبحرا بتاريخ الرومان. ولكنه كان رغم ذلك متفهما لعصره مدركا مشكلات الامبراطورية التي هيأت له الاقدار اعتلاء عرشها وكجندي نظر لمشاكل الامبراطورية مـــن زاوية عسكرية بالدرجة الأولى فكان هدفه حماية حدود الامبراطورية اولا وقبل كل شئ .

عمل دقلديانوس على تقوية مركز الامبراطور فجرد مجلس الشيوخ من جميع ما تبقى له من سلطات. ولم يعد هذا المجلس سوى مجلس بلدي يخص العاصمة روما. لقد صارت السلطة مركزة بيد الامبراطور يساعده في الحكم جهاز اداري ضخم.

وكان الامبراطور – بمساعدة ذلك الجهاز يشرف على كل جزء من اجزاء الامبراطورية و بهذا قضى دقلديانوس على النظام الذي وضعه اوغسطس والذي كانت السلطة فيه موزعة بين الامبراطور ومجلس الشيوخ لقد ذهبت كل مظاهر النظام الجمهوري التي كان يتشبث بها الاباطرة قبل دقلديانوس وحل محلها نظام استبدادي واضح صريح كان دقلديانوس مدركا الوضع المزري الذي كان فيه المركز الامبراطوري ، لذا حاول بكل الوسائل اعادة الهيبة الى الامبراطورية من ذلك انه انشأ بلاطا فاخرا احاطه بكل مظاهر الفخامة والفخفخة .

رأى دقلديانوس بثاقب بصره ان الامبراطورية أوسع من ان يحكمها رجل واحد ، لذا قسم الامبراطورية الى قسمين ، وقسم كل واحد منهما الى جزئين . يحكم القسم الواحد شخص يحمل لقب امبراطور او اوغسطس يساعده شخصان يحكمان الجزئين اللذين يكونان قسمه يعرف كل واحد منهما باسم قيصر وكانت الاجزاء الاربعة مقسمة بدورها الى مناطق وعدد هذه المناعق ١٠٠ منطقة متساوية في المساحة تقريبا . لقد كان حكام المناطق يعينون ويعزلون من قبل الامبراطور. وعلى الرغم من ان السلطات المحلية قد ضعفت كثيرا نتيجة لهذه الاصلاحات فان

الامتيازات الشخصية، استمرت اذ ان كبار موظفي الحكومة كانوا قد كونوا طبقة خاصة يحمل اصحابها القابا فخمة ويضاف الى هؤلاء الموظفين الكبار جماعة الشيوخ. لقد كون كل هؤلاء طبقة متميزة ، كان عدد افرادها في ازدياد مستمر نتيجة لقيام الامبراطور بمنح بعض الافراد امتيازات خاصة كالاعفاء من الضرائب والاعفاء من بعض الواجبات الحكومية الأخرى واقطاعهم الضياع والاراضي ومع ان الوظائف والمناصب الحكومية لم تكن وراثية ، فانها اصبحت كذلك وذلك ان بقية الفئات والطبقات كانت في اوضاع اجتماعي غير قابلة للتبدل والتغيير.

واعاد دقلديانوس تنظيم الجيش. وقد استمرت عملية تحصين المدن الداخلية واصبحت فرق الحدود مقيمة ، وصار اصحابها من ذوي الامتيازات ومن كبار الملاكين ولجأ دقلديانوس الى انشاء قوة جديدة متحركة يمكن نقلها بسرعة من محل الى اخر في اي جزء من اجزاء الامبراطورية قد يتعرض الى الخطر. ولتوفير ما يقرب من ٥٠٠ الف جندي وهو ما تحتاجه الامبراطورية ، اضطرت الحكومة الرومانية الى تشجيع الجرمان والبربر والعرب على الانخراط في جيشها والواقع ان قبائل جرمانية بجملتها سمح لها باجتياز حدود – الامبراطورية على اعتبار انها

حليفة للامبراطورية وانها تكون جزء من قوة دفاعها. اراد دقلديانوس اصلاح الاوضاع الاقتصادية في الامبراطورية ، فحاول السيطرة على العملة وتثبيت قيمتها وتحديد اسعار المواد الغذائية ، وإيجاد نظم جديدة للضرائب والسيطرة على جميع المشاريع الاقتصادية التجارية والصناعية والزراعية. وكانت الازمة المالية هي المشكلة الاقتصادية المباشرة التي واجهت الامبراطورية الرومانية وتتلخص في زيادة مصروفات الحكومة على وارداتها ، وذلك نتيجة للجهاز الاداري الضخم والجيش الروماني الكبير من جهة ، وسوء نظام الضرائب من جهة اخرى . نجح دقلديانوس في تثبيت قيمة العملة ، ولكن النقود الذهبية والفضية بقيت شحيحة وقليلة. ومن اصلاحات دقلديانوس المهمة تنظيمه اصحاب الحرف المختلفة في نقابات اصناف وكان الغرض من ذلك اجبار كل نقابة على انتاج مقدار معين من الوحدات الصناعية وذلك لغرض المحافظة على كمية الانتاج الذي كان يعاني نقصا مستمرا. كما ان تنظيم اصحاب الحرف في نقابات كان ييسر امر جباية الضرائب من افرادها ، فقد صارت كل نقابة ملزمة بدفع مقدار معين من المال الى الحكومة.

وهي بدورها تجمع ذلك المال من منتسبيها واجبر دقلديانوس الابناء على الانخراط في نفس الحرف التي كان يمتهنها آباؤهم وكان لهذه الاجراءات اثرها في تخفيف هذه الضائقة المالية التي كانت تعاني منها الحكومة ولكنها في نفسه الحقت ابلغ الضرر بالمشاريع الفردية، وادت على المدى البعيد الى ركود الحياة في المجتمع الروماني.

وامتدت يد دقلديانوس الى الريف، ولكن قوة كبار الملاكين هنا حدت من سلطة الحكومة وحالت بينها وبين احداث اي تغيير جذري في وضع الريف الروماني لقد كان الفلاح الروماني الحر يؤلف ركيزة مهمة من ركائز المجتمع الروماني كما ان ضريبة الارض كانت مصدرا اساسيا للدخل الحكومي. وكل ما فعلته الحكومة عندما تدهورت الزراعة وتناقصت الضريبة انها منعت الفلاحين الاحرار من ترك اراضيهم، وأوكلت جمع الضريبة منهم الى كبار الملاكين . واحتفظ هؤلاء لانفسهم بالجزء الاكبر من الضرائب التي كانوا يجبونها من الفلاحين . وبمرور الزمن اسندت الى كبار الملاكين واجبات حكومية اخرى كحفظ الامن المحلي والقضاء.

لقد هيمن قسم من كبار الملاكين على مقاطعات واسعة جدا وتمتعوا فيها بنفوذ كبير للغاية ، وصاروا بذلك حكاما مستقلون فعلا . وهؤلاء هم بعض اسلاف النبلاء الاقطاعيين الذين سادوا باخلال عهد الاقطاع من العصور الوسطى.

من هذا العرض لاصلاحات دقلديانوس، يلاحظ انها كانت حلولا عملية لاوضاع حرجة تتطلب حلولا سريعة ومؤقتة، وكانت النتيجة جيدة في بعض الحالات فقد اعيد الامن الى اغلب اجزاء – الامبراطورية ، وحفظت الحدود ، لمدة قرن اخر من الزمن.

الامبراطورية في عهدي قسطنطين الكبير وثيودسيوس:

اعتلى الامبراطور قسطنطين انكبير العرش في مطلع القرن الرابع (٣٠٥ – ٣٣٧) وكان بحق من اعظم الأباطرة في التاريخ الروماني . فقد نجح في بسط سيطرة الدولة على اجزاء الامبراطورية ، بعد أن قضى على منافسيه الطامعين في العرش . كما انه دافع بنجاح عن الحدود. ويعتبر الاعتراف بالمسيحية و بناء مدرسة القسطنطينية من اهم انجازات هذا الامبراطور العظيم . وبالنسبة للامر الاول فقد اعترف قسطنطين بموجب مرسوم ميلان الصادر في عام ٣١٣ ، بالديانة المسيحية وبذلك اصبحت هذه الديانة في مستوى الديانات الاخرى السائدة في الامبراطورية الرومانية ، وبهذا قضى على مشكلة مهمة من مشاكل الامبراطورية التي بقيت لمدة طويلة مصدرا للمتاعب وعدم الاستقرار.

اما بالنسبة الى بناء عاصمة جديدة للامبراطورية في الشرق فقد قام الأمبراطور ببناء مدينة كبيرة محل بلدة بيزنطة القديمة على الضفة الاسيوية للبسفور عند اتصاله ببحر مرمرة وتأسيس هذه المدينة بحد ذاته يشير الى

الاهمية المتزايدة للاقاليم الشرقية، في الامبراطورية وانشئت هذه لتكون عاصمة الجزء الشرقي للامبراطورية الى جانب روما عاصمة الغرب .

وبينما سارت هذه المدينة في طريق النمو والازدهار منذ تأسيسها ، فان روما من جهة اخرى كانت تسير نحو التدهور والاضمحلال. وفي اواخر القرن الرابع اعتلى الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ – ٣٩٥) العرش في ظروف عصبية ولدتها معركة ادرنة الشهيرة التي دمر فيها الجيش الروماني امام الغوط الغربيين واستطاع ثيو دسيوس ان يعيد شيئا من الثقة والاستقرار. ومن اعماله المهمة قيامه بفصل الامبراطورية الرومانية فصلا تاما الى امبراطوريتين واحدة في الغرب عاصمتها روما وقد خص بها ابنه هونوريوس ، واخرى في الشرق عاصمتها القسطنطينية خص بها ابنه اركاديوس وبهذا يكون ثيودسيوس قد اتم كل ما شرع به كل من دقلديانوس وقسطنطين. فالاول بدا بفكرة تقسيم الامبراطورية ، ولكن تقسيمه كان صوريا فقد بقيت في الواقع امبراطورية واحدة . والثاني انشأ فعلا عاصمة جديدة فصارت للامبراطورية عاصمتان. وجاء ثيو دسيوس ليتخذ الخطوة الاخيرة في عملية الفصل .